أدب المقاومة

أول من سلط الضوء على الأدب الفلسطيني الذي عرف بأدب المقاومة كان المناضل والروائي الفلسطيني الراحل غسان كنفاني الذي ألف كتابا بعنوان "أدب المقاومة في فلسطين المحتلة" صدر عن دار الآداب (1966)، وكتاباً ثانياً بعنوان "الأدب الفلسطيني المقاوم تحت الاحتلال: 1948-1968". ضمّن كنفاني الكتاب الثاني نماذج من هذا الأدب، شملت نماذج شعرية لكل من حنا أبو حنا ومحمود درويش وسميح القاسم وتوفيق زياد وفوزي الأسمر ونزيه خير وراشد حسين ومحمود دسوقي.

أدب المقاومة الفلسطيني.. تاريخ طويل بطول عمر الجهاد الفلسطيني وبطولاته.. هذا الأدب الذي أوجدته الظروف وأوجدته نيران الحروب الملتهبة هناك في أرض أولى القبلتين.. هو أدب المعارك والحروب ، أدب رثاء الشهداء و مواساة الجرحى!

المتحدث عن أدب المقاومة الفلسطيني عليه أن يعرج على تاريخه ويعود إلى بدايته وينظر كيف وجد.. البعض يؤرخ هذا الأدب إلى عام 1948 خلال الحروب الضارية بين العرب وإسرائيل إلا أنه أقدم من ذلك بكثير.

ولد هذا الأدب من رحم الثورة حيث عهد الانتداب البريطاني عندما قامت" ثورة البراق" عام1929م وما تلاها من أحداث عظام في 1930م "يوم الإعدام "17/ 6/ 1930 في سجن عكا المعروف بالقلعة عندما غادر فلسطين الشهداء الثلاثة الذين زفتهم إلى جنان الخلد (فؤاد حجازي ، محمد جمجوم ، عطا الزير) وقد شيع الأدب المقاوم الفلسطيني قصيدة أبكت عيون الأمهات قصيدة "من سجن عكا"مطلعها:

كانوا ثلاث رجال يتسابقوا ع الموت أقدامهم عليت فوق رقبة الجلاد

وصاروا مثل يا خال.. وصاروا مثل يا خال.. طول وعرض لبلاد

حتى يصل القلم إلى دفع روح الجهاد في نفوس القراء:

من سجن عكا طلعت جنازه

محمد جمجوم وفؤاد حجازي

جازي عليهم يا شعبي جازي

المندوب السامي وربعه عموما

ومن هنا.. تفجرت ينابيع المقاومة و صار الجهاد الفلسطيني بالسيف والقلم.. ولا يمكننا أن نغفل عن أبرز أسماء هذا النوع من الأدب من أمثال إبراهيم طوقان الذي ألهب الجماهير في قصيدته "الثلاثاء الحمراء" وخرجت الجماهير في مظاهرة كبيره بعد إلقاءه قصيدته ليثبت أن الأدب قادر على الثورة..

ولا ننسى الشاعر المجاهد الذي شيع نفسه بعد إصابته قبيل استشهاده في معركة الشجرة عام 1948م (الشاعر عبد الرحيم محمود/ الأعمال الكاملة ص14 – تحقيق: عز الدين مناصرة) الذي قال في آخر أبيات له:

احملوني ... احملوني

واحذروا أن تتركوني

وخذوني لا تخافوا

وإذا مت ادفنوني

وما أعظم دوره الجهادي فهو صاحب القصائد التي ألهبت حماس الجماهير بل وأصبحت أناشيد في المدارس! طاردته قوات الاحتلال البريطاني مطاردة عنيفة أثبتت أنه صاحب قلم مكافح، وأشهر الأناشيد التي رددها الشعب كانت قصيدته "الشهيد" التي لم يسبقها في شهرتها العربية من قصائد الشعراء الفلسطينيين إلا قصيدة "موطني" لإبراهيم طوقان، وهل ننسى هذه الحروف.

سأحمل روحي على راحتي وأمضي بها في مهاوي الردى

فإما حياة تسر الصديق وإما ممات يغيظ العدى

(الأعمال الكاملة، ص31)

ثم تلت هذه الفترات الملتهبة فترة الستينيات والسبعينيات التي ازدحمت بالهزائم المستمرة وأوجدت جيل من الشعراء الشباب أمثال هاشم الرفاعي وعبد الرحمن بارود وكأنه تحدي الأدب للهزيمة وإصرار على أن الكفاح مستمر حتى لو غابت شمس الانتصارات... ثم فترة الثمانينيات والتسعينيات مروراً بجيل الانتفاضة الأولى وبعدها انتفاضة الأقصى حيث برزت مجموعة من الشعراء الذين اتخذوا من الأدب المقاوم منهجاً يسيرون عليه، يميز هذا العصر أن الشعراء فيه من داخل فلسطين وخارجها في الشتات ما جعل فيه خليط فريد من الشعر الراقي.

ولا ننسى ذكر الشاعر محمود درويش الذي اعتبر أحد شعراء المقاومة له أبيات عنيدة يعرفها قارئ هذا الأدب.

يحكون في بلادنا

يحكون في شجن

عن صاحبي الذي مضى

وعاد في كفنْ!!

ولكنه في نهاية طريقه الأدبي سلك منهجاً مغايراً لماضيه وانتقل بقفزة معاكسه من شعر المقاومة إلى الشعر الذاتي! كفن شعره وختم تاريخه مع المقاومة بقصيدة وضح فيها للجماهير أنه يودع أدب المقاومة وهي "أنت منذ الآن غيرك"وكان كذلك!!

فلقد تبدلت وجهته الأدبية في وقت كانت الساحة الفلسطينية في أشد الحاجة لأدب يلهبها من جديد .

ولكن من جهة أخرى برزت أسماء مميزه كان يجب أن يلمع نجمها هؤلاء الشعراء كرسوا أقلامهم للوطن والدفاع عنه وخير من يدافع ويكتب بقوة وحماسه هو من يعيش هذه المشاهد ويتواجد في قلب المعارك ونذكر هنا الدكتور المجاهد الشهيد إبراهيم المقادمة الملقب بفيلسوف الشهداء، ومن أبياته:

بلال يا بلال

الخير علمني

دروساً في تحدي البطش

أحفظها ولا أغفل

وأرفع هامتي للشمس أستعلي

ومن ظلم الزنازين

سأخرج في يدي المشعل

لأرشد أمتي العزلاء

أصنع للفدا الآني

بطولات ومستقبل

ويرافق هذا الشاعر المجاهد رحمه الله المتميز الشيخ الرنتيسي الذي حرك صفوف المجاهدين بحروفه واستطاع أن يناضل بروحه وبحرفه فكان علماً لكل أبطال فلسطين وقدوة فذة ترسم للمجاهدين خريطة العودة بالدم والحب.

شعراء المقاومة وصف أطلق على مجموعة من الشعراء الفلسطينيين، وقد راج المصطلح وبعض القصائد بعد هزيمة 1967، وظهور المقاومة الفلسطينية بعدها بقليل. من أشهر الأسماء في تلك المرحلة توفيق زياد ومحمود درويش وسميح القاسم. ومن أشهر القصائد التي راجت في ذلك الحين هنا "باقون" لتوفيق زياد، و"سجل أنا عربي" لمحمود درويش، و"خطاب في سوق البطالة (يا عدو الشمس)" لسميح القاسم. أدناه القصائد الثلاث.

هنا باقون

توفيق زياد

كأننا عشرون مستحيل

في اللد والرملة والجليل

هنا على صدوركم باقون كالجدار

وفي حلوقكم

كقطعة الزجاج كالصبار

وفي عيونكم

زوبعة من نار

هنا على صدوركم باقون كالجدار

نجوع؛ نعرى؛ نتحدى

ننشد الأشعار

***

obeikandl.com

سجّل، أنا عربي

محمود درويش

سجّل، أنا عربي

ورقمُ بطاقتي خمسونَ ألفْ

وأطفالي ثمانية

وتاسعهُم سيأتي بعدَ صيفْ

فهلْ تغضبْ؟

سجّلْ

أنا عربي

وأعملُ مع رفاقِ الكدحِ في محجرْ

وأطفالي ثمانيةٌ

أسلُّ لهمْ رغيفَ الخبزِ،

والأثوابَ والدفترْ

من الصخرِ

ولا أتوسَّلُ الصدقاتِ من بابِكْ

obeikandi.com

ولا أصغرْ

أمامَ بلاطِ أعتابكْ

فهل تغضب؟

سجل

أنا عربي

* * *

خطاب في سوق البطالة

(يا عدو الشمس)

سميح القاسم

ربما أفقد- ما شئت- معاشي

ربما أعرض للبيع ثيابي وفراشي

ربما أعمل حجاراً، وعتالاً، وكناس شوارع

ربما أبحث، في روث المواشي، عن حبوب

ربما أحمد عريانا، وجائع

obeikandl.com

يا عدو الشمس لكن لن أساوم

وإلى آخر نبض في عروقي سأقاوم

===

ربما تسلبني آخر شبر من ترابي

ربما تطعم للسجن شبابي

ربما تسطو على ميراث جدي

من أثاث وأوان وخواب

ربما تحرق أشعاري وكتبي

ربما تطعم لحمي للكلاب

ربما تبقى على قريتنا كابوس رعب

يا عدو الشمس لكن لن أساوم

وإلى آخر نبض في عروقي سأقاوم[71]

[71] عود الند، المجلة الثقافية الشهرية، ISSN 1756-4212، الناشر: د. عدلي الهواري.

obeikandl.com